إستدركات الامام الشوكانى فى تفسيره فتح القدير

على الزمخشرى فى كتابه الكشاف

الجانب العقدى نموذجاً

د . أحمد بن عمر بن أحمد السيد

aosaeed@qu.edu.sa

الأستاذ المشارك فى التفسير وعلوم القرآن بمركز الدراسات الإسلامية بكلية الشريعة

والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

(Umm Al-Qura University)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد؛

فإن تفسير الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي المتوفى (538هـ) شائع ومنتشر بين كثير من طلبة العلم، بل يدرس في بعض المعاهد والمراكز العلمية خارج المملكة العربية السعودية؛ وذلك لما اشتمل عليه من فوائد لغوية وبلاغية؛ نظرا لبراعة مؤلفه في الأدب والنحو واللغة، إلا أن مؤلفه على طريقة المعتزلة في الاعتقاد بل كان متعصبا لمذهبهم، منافحا عنه، مما أداه ذلك إلى التعسف في تفسير بعض الآيات القرآنية، وتوجيه معناها بما يوافق مذهبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– (728هـ): وأما " الزمخشري " فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية، والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة ... وهذه الأصول حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ولا لمقاصده فيها، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين " ( ) وقال الذهبي (ت 748هـ) في ترجمة الزمخشري –: " صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله؛ فكن حذراً من "كشَّافه "( ).

موضوع البحث وهدفه:

تعرض المفسرون قديما وحديثا لنقد ما أدخله الزمخشري في تفسيره مما خالف فيه أهل السنة، وتبنى مذهبه في الاعتزال، ومن هؤلاء المفسرين الإمام محمد بن علي الشوكاني(ت 1250هـ) في تفسيره القيم " فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير"؛ فعقدت العزم على جمع نماذج مما استدركه الإمام الشوكاني في تفسيره على الزمخشري، والناظر في تفسير فتح القدير يتحصل له منها عدد كبير، ولكثرة هذه الاستدراكات وتنوعها بما لا يتناسب مع الحجم المسموح به لل في المجلات العلمية

المحكمة رأيت أن أقتصر في هذه الاستدراكات على أهم المسائل التي خالف فيها أئمة التفسير من أهل السنة والجماعة مع ذكر نماذج لها؛ لأهميتها ولأنها أساس الاختلاف العلمي والمنهجي مع الزمخشري – رحمه الله – ومن ثم رأيت أن يكون بحثي بعنون: " استدراكات الإمام الشوكاني في تفسيره فتح القدير على الزمخشري في كتابه الكشاف".

أسباب اختيار الموضوع:

1- التعريف بمكانة هذين العلمين، وأنهما من كبار المفسرين الذين يمثلون مدرستين كبيرتين من مدارس التفسير الأولى :مدرسة التفسير بالمأثور، والثانية: مدرسة التفسير بالرأي.

2- أهمية تفسير الكشاف للزمخشري وانتشاره بين طلاب العلم؛ لما يحوه من فوائد لغوية، ودرر بلاغية مع كونه داعية للاعتزال.

3- مكانة الإمام الشوكاني العلمية وتفسيره فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.

4- معرفة فقه الخلاف بين العلماء الذي يفتح باب الحوار الهادي بين المتأخرين والمتقدمين، وهذا يجعل انتقاد الأكابر بالأدب الجم ، يدل وينبي عن مدى الوعي الكامل، والاعتراف بالسبق في هذا الميدان للمتقدمين في تفسر القرآن الكريم وقد أشاد بهذا الإمام الشوكاني في تفسيره.

5- خطورة القضايا العقدية التي عرضها الزمخشري وناقشها الشوكاني

6- الرغبة في بيان الحق في القضايا العقيدية التي عرضها الزمخشري في كتابه وتعقبها الشوكاني –رحمهما الله

7- أن الكتابة في هذه الموضوعات تنمي فكر الباحث، وتصقله من الناحية العلمية، بعيداً من التعصب حيث يدرس رأيين مختلفين، فيقارن بينهما ويرجح بما يراه راجحا بالأدلة الصحيحة لبيان الحق.

أسئلة البحث

1- ما هو منهج الزمخشري في تفسيره الكشاف عند دراسته للمسائل العقدية التي تخالف مذهبه الاعتزالي؟

2- ماهي أبرز المسائل العقدية التي ذكرها الزمخشري في الكشاف واستدركها الإمام الشوكاني عليه في كتابه فتح القدير؟

حدود البحث:

جمع المسائل العقدية التي استدركها وتعقبها الإمام الشوكاني على الزمخشري في كتابه الكشاف من خلال كتاب الإمام الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير جمعاً ودراسة.

الدراسات السابقة، والفرق بينها وبين دراستي:

1- استدراكات الشوكاني على الزمخشري من خلال كتابه فتح القدير جمعاً ودراسة إعداد الباحثة/ مها بنت عبد الله السهلي بإشراف فضيلة الأستاذ الدكتور/ حكمت بشير ياسين، بجامعة الاميرة نورة بنت عبد الرحمن عام 1433هـ، وهي عامة لجميع أنواع استدراكات الشوكاني على الزمخشري ولم تتعرض للمسائل العقدية بصورة مفصلة ( ).

2- تعقبات الإمام الشوكاني على الإمام الزمخشري من خلال سورة آل عمران عرض ودراسة وتعليق، للباحث محمد فراج طه علي، كلية الدراسات الإسلامية للبنين بالقاهرة بجامعة الأزهر. ( ). والفرق بين دراستي وهذه الدراسات أن دراستي جمع ودراسة خاصة باستدراكات الإمام الشوكاني على الزمخشري في الجانب العقدي، كذا فإن حدود البحث قد اقتصرت على سورة آل عمران.

الإضافة العلمية:

أن الكتابة في هذه الموضوع تنمي فكر الباحث، وتصقله من الناحية العلمية، بعيداً

من التعصب، حيث يدرس رأيين مختلفين، فيقارن بينهما، ويرجح بما يراه راجحا بالأدلة الصحيحة؛ لبيان الحق، وتبرز منهج أهل السنة والجماعة في هذه المسائل المهمة التي تشكل على بعض طلاب العلم، في كل زمن من الأزمان.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث ومنهج الدراسة تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس؛ وهي على النحو التالي:

المقدمة، وتشتمل على موضوع البحث وأهميته وأسباب اختياره وخطة البحث ومنهج الدراسة.

في التمهيد: تعريف الاستدراك والترجمة للإمام الشوكاني والزمخشري وبيان منهج كل منهما وعقيدته.

المبحث الأول: حكم مرتكب الكبيرة.

المبحث الثاني: المفاضلة بين الأنبياء والملائكة والبشر.

المبحث الثالث: دخول الجنة بالعمل أم بالفضل.

المبحث الرابع: الموقف من الصحابة رضوان الله عليهم.

المبحث الخامس: العين.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وفيها فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

منهج البحث:

انتهج البحث منهجًا يجمع بين منهجي التحليل والنقد من خلال الآتي:

1- جمع استدراكات الشوكاني على الزمخشري المخالفة لجمهور المفسرين من أهل السنة والجماعة.

2- دراسة كل مسألة من المسائل من خلال أقوال المفسرين ومناقشتها وفق نصوص الكتاب والسنة.

3- ذكر قول الزمخشري، وتفنيد أدلته، والرد عليه بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة، واقوال أئمة التفسير من أهل السنة والجماعة والقواعد الترجيحية المعتبرة.

التمهيد

أولا: تعريف الاستدراكات:

الاستدراك في اللغة: الدال والراء والكاف أصلٌ واحد، وهو: لُحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، يقال: أدركتُ الشيءَ أُدركُه إدراكاً، ويقال: فرس درك الطريدة؛ إذا كانت لا تفوته طريدة، ويقال: أدرك الغلام والجارية؛ إذا بلغا، وتدارك القومُ لحق آخرهم أوّلهم، وتدارك الثريان إذا أدرك الثرى الثاني المطرُ الأوّل.(1)

وبالنظر إلى دلالات جذره (دَرَكَ) فقد جاءت بمدلولات متعددة ومختلفة، ومن أكثرها استعمالاً هنا هو تدارك خطأ الرأي بالصواب واستدرك عليه قوله. واسْتَدْرَكْت ما فات وتَدارَكْتُه، وتدارَكَ القومُ، أي تلاحقوا، أي لحق آخرهم أوَّلَهم واستدرك الشيء بالشيء: حاول إدراكه به، وأدرك عليه خطأه، واستَدْرَكَ عليه قوله؛ أَصْلَحَ خطَأَه، و(استدرك) ما فات تداركه، الشيء بالشيء تداركه به، وعليه القول أصلح خطأه، أو أكمل نقصه، أو أزال عنه لبسا.(2)

الاستدراك في الاصطلاح:

قد عرف العلماء الاستدراك في كل علم من العلوم الشرعية بتعرف خاص بذلك العلم(3)، والمراد به هنا هو تعريفه عند المفسرين فالاستدراك عند المفسرين هو:

---

(1) ينظر: ينظر معجم مقاييس اللغة (269/2).

(2) ينظر: أساس البلاغة (186/1)، ومختار الصحاح (85/1)، وتاج العروس (144/27)، والمعجم الوسيط (281/1).

(3) فعند الأصوليين: هو رفع التَّوهم الناشئ من الكلام السابق بأحد أدوات الاستدراك، وهي: بل، ولكنَّ، وعلى، وأدوات الاستثناء. أو مخالفة حكم ما بعده لما قبله. وعند الفقهاء: هو إصلاح ما حصل في القول

=

أن يتعقب مفسرٌ متأخر مفسراً متقدماً في بعض أرائه، ويتبع ذلك بالتصحيح، وترجيح ما يراه المتأخر غالبا، وقد يرد المستدرِك على المستدرَك قوله.

ويعرف أيضا بأنه: إتْبَاعُ المفسر قولاً يذكره في بيان معنى في القرآن بقول آخر يُصلح خطأه، أو يكمل نقصه، أو يبين لبسه.[1]

ثانيا: التعريف بالإمام الشوكاني:

هو محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني، ولد عام 1173هـ، وكان مولده في هجرة شوكان.[2]

وقد عرفت أسرة الشوكاني منذ زمن بعيد من بين الأسر اليمنية العريقة الضاربة جذورها إلى جدّ القبائل القحطانية همدان بن مالك بن زيد.[3]

ولقد أخذ في طلب العلم وسماع العلماء وفرغَّ نفسه للطلب، وجد واجتهد، وأخذه عن علماء بلده، في صنعاء ولم يرحل، فقال عن نفسه مبينُا السبب في ذلك: "لم أرحل لأعذار منها :عدم الإذن من الأبوين"[4] وتنوع في أخذه للعلوم؛ فلم يقتصر على فنّ واحد، حتى أصبح إماما من الائمة الذين يشار إليهم بالبنان وإماماً يرحلُ إليه لطلبه، فقد أخذ عنه طلبة العلم كثيرا وكانت تبلغ دروسه في اليوم والليلة نحو ثلاثة عشر درساً، منها ما يأخذه عن مشائخه، ومنها ما يأخذه عنه تلاميذه،

أو العمل من خللٍ أو قصورٍ أو فوات. وعند المحدثين: هو استدراك إمام على إمام أحاديث لم يخرجها وهي موافقة لشرطه أو العكس.

(1) ينظر: استدراكات السلف في التفسير ص :(9)

(2) وهي هجرة من هجر بلاد خولان تقع في الشرق الجنوب من صنعاء بينهما وبين صنعاء دون مسافة القصر. ينظر: معجم البلدان (373/3) .

(3) ينظر: البدر الطالع في ترجمته لأبيه ص: (480)

(4) البدر الطالع ص: (735)

ولقد أخبر عن نفسه رحمه الله بأنه جلس لإفادة الطلبة فقط، فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادة عن عشرة دروس في فنون متنوعة، واجتمع منها في بعض الأوقات التفسير،والحديث، والفقه،والأصول، والنحو،والصرف، والبلاغة،والمنطق،والجدل.وكان هذا ديدنه في طلبه للعلم في تعلمه وتعليمه وتدريسه إلى أن لقي ربه بعد حياة حافلة بالجد والاجتهاد في طلب العلم والتأليف والفتيا والقضاء وتوفي عن 76 سنة في شهر جماد الآخرة عام 1250هـ.[1]

حياته العلمية وثناء العلماء عليه:

وتتلخص حياته العلمية في النقاط التالية:[2]

1-سعة تبحره في العلوم على اختلاف أجناسها، وأنواعها، وأصنافها، وكثرة تصانيفه المحررة، ورسائله المحبرة.

2- دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد.

3-دعوته إلى العقيدة السلفية في بساطتها أيام الرسول -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه-رضي الله عنْهم-.

4-دعوته إلى محاربة كل ما يخل بالعقيدة الإسلامية.

5-دعوته إلى تحكم شرع الله في جميع مجالات الحياة.

ثناء العلماء عليه:

وقد أثنى عليه أحد العلماء [3]فقال: "له المؤلفات الجليلة الممتعة المفيدة النافعة في أغلب العلوم، منها: نيل الأوطار، لم تكتحل عين الزمان بمثله في التحقيق، ولم يسمح الدهر ينحوه في التدقيق، أعطى المسائل حقها في كل بحث على طريق

(1) ينظر: البدر الطالع ص: (732-740)

(2) الامام الشوكاني مفسرا ص: (63,62).

(3) وهو أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي البخاري القنوجي المتوفى سنة (1307هـ).

الإنصاف، وعدم التقيد بالتقليد، ومذهب الأخلاف والأسلاف، وتناقله عنه مشايخه الكرام، فمن دونهم من الأعلام، وطار في الآفاق في زمان حياته، وقرئ عليه مرارا، وانتفع به العلماء"[1]

مذهبه وعقيدته:

نشأ الامام الشوكاني في بيئة زيدية؛ درس وتفقه على علمائها، وبلغ مرتبة عالية من النبوغ جعلته يفتي وهو في العشرين من عمره، ويترك التقليد، ويجتهد رأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيد، وقبل سن الثلاثين[2] من عمره حيث لم يلبث أن تخلى عن التقليد والتمذهب على مذهب الزيدية، وتخلى منصب الاجتهاد، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق، أو مذهب من المذاهب؛ بل اعتمد مباشرة على الكتاب والسنة، مجتهداً في فهم النصوص، واستنباط الأحكام منها، ولو كانت مخالفة هذه الاحكام لمذهب الزيدية أو المذاهب الأخرى، بل قال في الحث على الاجتهاد ونبذ التقليد ما يلي:" والذي ادين الله به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله – بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطر مهمات كليات أصول الفقه – من ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، ثم إذا انضم إلى ذلك الاطلاع على كتب السنة المطهرة، التي جمعها الأئمة المعتبرون، وعمل بها المتقدمون والمتأخرون؛ كالصحيحين وما يلتحق بهما مما التزم فيه مصنفوه الصحة، أو جمعوا فيه بين الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح، ولما هو حسن، ولما هو ضعيف؛ وجب العمل بما كان كذلك من السنة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي؛ سواء كان قائله واحد أو جماعة أو الجمهور؛ فلم يأتي في هذه الشريعة الغراء ما يدل على وجوب التمسك بالآراء المتجردة عن معارضة الكتاب والسنة؛ فكيف بما كان فيها

(1) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الأول والآخر. ص: (455).

(2) البدر الطالع: (740).

كذلك؟، بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ [آل عمران: ٣١] وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وصح عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [1] ". [2]

بل خالف مذهب قومه الزيدية في مسائل كثيرة منها مسائل فرعيه، والبعض أصولية وقد ذكرها في آخر مؤلفاته في كتابه السيل الجرار[3] حيث نقد فيه الشوكاني كتاب الأزهار الذي هو عمدة الزيدية وتتلخص هذه المخالفات في أهم المسائل التالية: [4]

1- خالفهم في مسألة مفهوم أهل البيت؛ حيث يرى أنه شامل لجميع زوجات النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- وعلى وفاطمة والحسن والحسين -رضي الله عَنْهم - أجمعين، والزيدية يرون أنه خاص بعلي وفاطمة والحسن والحسين فقط.

2- خالفهم في جوازهم الخروج على السلطان الظالم، ورأى وجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة، ولم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله.

3- خالفهم في جوازهم بناء القباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك دون غيرهم.

4- خلفهم في شروط الإمامة؛ حيث يرى صحة الإمامة في سائر بطون قريش،

(1) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور برقم (1718).

(2) البدر الطالع: (79/2).

(3) ينظر: السيل الجرار (278/4-280).

(4) منهج الامام الشوكاني في العقيدة (118-120)

ويوجب الزيدية أن تكون من بيت علي وفاطمة رضي الله عنهما فقط.

وبهذا يتبين لنا أن مذهب وعقيدة الإمام الشوكاني هي عقيدة أهل السنة والجماعة، ونهج منهج السلف الصالح في فهم الكتاب والسنة كما ذكر ذلك العلماء [1] بل صرح بهذا في إحدى رسائله حيث قال: "لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقنصيه أدلة الكتاب والسنة، وإبراز الصفات كما جاءت، وردّ علم المتشابه إلى الله سبحانه وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدونة في هذا العلم–أي علم الكلام– المبنية على شفا جرف هار من أدلة العقل التي لا تعتقل، ولا تثبت الا بمجرّد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيما إذا كانت مخالفة لأدلة الشرع الثابتة في القرآن والسنة، فإنها حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد ويتوصلون به إلى معرفة ما يتعلق بالرب سبحانه، وبالوعد والوعيد، والجنة والنار, والمبدأ والمعاد, الاّ ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه, وليس للعقول وصول إلى تلك الأمور"[2] بل ذكر ذلك.

التعريف بتفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير وبيان منهجه في: تأليفه:

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أصول التفسير ومرجعاً مهماً من مراجعة؛ لتميزه في جمعه بين التفسير بالدراية والتفسير بالرواية فأجاد في باب الدراية وتوسع في باب الرواية وجمع مادته من مصادر متنوعة واستغرق في تأليفه ما يقارب سبع سنين فقد

(1) قال عنه محمد حسين الذهبي في عقيدته: "وعقيدة الشوكاني عقيدة السلف من حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف وقد ألف رسالة في ذلك سماها " التحقق من مذهب السلف". التفسير والمفسرون: (286/2).

(2) أدب الطلب للشوكاني (146).

شرع فيه في ربيع الأخرة عام 1223 وفرغ منه في رجب عام 1229هـ ويتلخص منهجه في كتابه فتح القدير في النقاط التالية: [1]

1- المعارضة بين التفاسير المختلفة للترجيح مهما أمكن، وإن اتضح له وجه غيرها أخذ به.

2- الحرص على ايراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- أو الصحابة -رضي الله عنهم -أو التابعين أو الأئمة المعتبرين رحمهم الله وبيان منهجه في ايراد هذه الروايات.

3- استخدامه الواسع لعلوم العربية والأقيسة اللغوية من معاجمها للاستشهاديات والشروح المبينة للمعاني المقصودة والمباشرة كما فهمها العرب أصحاب اللغة.

4- تنوع المصادر الكثيرة التي جمع منها هذا الكتاب.

5- النقد لبعض تفاسير الفرق المخالفة والرد عليهم كالمعتزلة وغيرهم.

6-يوجه النقد إلى من سبقه برأي أو اجتهاد يخالفه، وبشكل خاص في المسائل التي تطرق إليها المعتزلة كالزمخشري، والمتعلقة بالتأويل والكبائر والصغائر ونحو ذلك. [2]

7-استطرادات مفيدة ينفرد بها من بين المفسرين؛ وذلك كموضوعه الأثير في ذم التقليد والمقلدين فما من آية كريمة يدل الأمر فيها على النهي عن تقليد الأوائل أو الآباء دون بصيرة إلا وجد فيها سبيله لدحض التقليد والدعوة إلى الاجتهاد. [1]

(1) ينظر: التفسير والمفسرون (286/2)، والإمام الشوكاني مفسراً (107-112)، والإمام الشوكاني رائد عصره (336-371).

(2) ينظر: الامام الشوكاني رائد عصره (370-371).

موقف العلماء والإمام الشوكاني من تفاسير المعتزلة عامة والكشاف للزمخشري خاصة:

لقد سبق العلماء الكبار الإمام الشوكاني في نقدهم لمذهب المعتزلة، وتأويلهم لكلام الله وصرفهم له عن ظاهره إلى مما يوافق معتقدهم ومذهبهم الباطل، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية فقد حكم على تفاسيرهم فقال:" إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تقاليدهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة وذلك من وجهين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم، أو جوابا على المعَارِض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحا ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم، أو يعتقد فسادها ولا يهتد كذلك"[(2)] ولقد انتقد تفسير الزمخشري كذلك غيره من العلماء كما ورد ذلك في أقوالهم .[(3)]

ثالثا: التعريف بالزمخشري:

---

(1) من هذه الأمثلة تفسير لقوله تعالى في الآية 28 من سورة الأعراف ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ ﴾ [الاعراف 28].

(2) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير (58-86).

(3) كالهروي والسبكي وابن بشكوال وأبو حيان وابن خلدون. ينظر: التفسير والمفسرون (2/435-443).

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الملقب بـ" جار الله " حيث غلب عليه لمجاورته بمكة زماناً طويلا، ولد بقربة زمخشر – إحدى قرى خوارزم – يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467هـ[1]، ونشأ في أسرة فقيرة فدفع به أباه إلى خياط ليعلمه الخياطة، ولكن الزمخشري له رغبة في طلب العلم فاستعطف أباه قائلا له " احملني إلى البلد واتركني بها" [2] ثم رحل إلى بخارى في طلب العلم – حيث كانت آنذاك ملتقى العلماء – فأخذ عن علمائها، وتتلمذ على جهابذتها، وتنقل بين مرو وخراسان متلقيا للعلم، ثم رحل إلى مكة سنة 205 هـ، وكان مولعا ببيت الله الحرام مجاورا له، وصنف أشهر مصنفاته وأعظمها بين زمزم والمقام كتفسيره الكشاف، وأطوق الذهب، ونوابغ الكلم، وربيع الأبرار، وأساس البلاغة[3]، وكان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتسابا واطلاعا على كتبها وبه ختم فضلائهم[4].

وقال عنه السيوطي: " كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متقنا في كل علم"[5] فهو عالم من العلماء لم يغمطوا عليه غير مذهبه في الاعتزال وفخره به، ودعوته إليه، وتطاوله على

أهل السنة؛ ولذا قال عنه ابن حجر: " أنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال"[6]

(1) ينظر: الجواهر المضيء في طبقات الحنفية (161/2) ووفيات الأعيان (168/5) والأنساب (297/6).

(2) ينظر وفيات الأعيان (169/5).

(3) ينظر: مفتاح السعادة(100/2).

(4) نقل هذا اللفظ عن الإمام ابن اليمن زيد ين الحنا الكندي ينظر: انباء الرواة (270/3)

(5) بغية الوعاة (270/2).

(6) لسان الميزان (4/6).

وفاته:

عاد الزمخشري من مكة بعد أن أدركه الكبر، وأحس بدنو الأجل، إلى بلده خوارزم، وأقام بها إلى توفاه الله في ليلة عرفة سنة 538هـ بجرجانية.[1]

منهج الزمخشري في كتاب الكشاف وقيمته العلمية:

كان الزمخشري رأسا في الاعتزال، وكان لديه من الجرأة في إعلان مذهبه وافتخاره به أن ينتصر لهذا المذهب بكل ما استطاع من حجاج، حتى لو اضطر ذلك إلى ليّ أعناق الآيات وتأويلها على غير لسان العرب، بل إن السبب في تأليف هذا الكشاف هو سؤال إخوانه في مذهب الاعتزال له؛ حيث اجتمعوا إليه وسألوه أن يملي عليهم الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، بل استشفعوا عليه بكل عظيم لما يعرفوا عن بلاغته وفطنته وشدة افتخاره بهذا المذهب حتى أجابهم إلى ما طلبوا منه من تأليف هذا الكتاب.[2]

ويتخلص منهج الزمخشري في كشافه في النقاط التالية:

1- تأويله للفظ القرآن الكريم بما يتفق مع مذهبه وعقيدته:

ومن الأمثلة على ذلك إذا تعرض لتفسير آية وكان لفظها على ظاهرها لا يساعد مذهبه؛ فيذهب به إلى معني آخر يوافق معتقده كتفسيره لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣]؛ فهذه الآية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهم في مذهب المعتزلة واعتقادهم ينفوا ذلك ويصرفونها على خلاف ظاهرها كما سيأتي بيان ذلك.

(1) وهي قصبة خوارزم تقع على شادي نهر جيحون ينظر: وفيات الأعيان (5/ 173)،ومعجم الأدباء (129/19).

(2) ينظر: مقدمة الكشاف (97/1) والتفسير والمفسرون (431/1-432)، ومنهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه(77).

2- اهتمامه بالناحية البلاغية للقرآن الكريم:

برز في تفسير الزمخشري عِلمَين مختصين بالقرآن الكريم وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتتبع معناهما في القرآن الكريم؛ مما ميز به تفسير الكشاف في نظر علماء التفسير وطلابه، واعترف له بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها لمذهبه الاعتزالي.

وقارن الحافظ ابن بشكوال بين تفسير ابن عطية، وتفسير الزمخشري فوصف كتاب الكشاف وصفاً دقيقاً وتحليلاً عميقا فقال:" كتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص و أغوص... هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله -عز وجل- عليه، ونسبه ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه".[1]

وقال القاضي تاج الدين السبكي" وأعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلاّ أنه رجل مبتدع، متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه إلى أهل السنة والجماعة.."[2]

3- إيغاله في التأويل وبالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره واعتماده على الفروض المجازية:

فكان الزمخشري إذا حاصره النص القرآني حاول حمله على التخييل؛ ومن الأمثلة على ذلك عند تفسيره لآية الكرسي والمراد بالكرسي فقال "إن كرسيه لم يضيق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ولا

(1) البحر المحيط: (10/1) والتفسير والمفسرون (435/1-436).

(2) معيد النعم ومبيد النقم ص (80).

كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد كقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ [الزمر: ٦٧].

من غير تصور قبضة، وطي ويمين وإنما هو تخييل لعظمة شأنه ولتمثيل حسن..."[1].

4- تعامله مع الآيات التي تخالف مذهبه وجعلها من المتشابه وتطاوله على أهل السنة والجماعة بالعبارات الفاحشة.

جعل الزمخشري ما خالف مذهبه من الآيات من المتشابه، ثم حمله لهذه الآيات المتشابهات في زعمه على المحكمات لتصادمها مع مذهبه، وتحامله وتطاوله على أهل السنة، ورميهم بالعبارات النابية؛ ومن أمثلة ذلك تفسيره للآيات التي تخالف مذهب وهي مبينة في مسائل هذا البحث فمثل الزمخشري لحمل المتشابه على المحكم ورد إليه على مذهبه في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ ﴾[الأنعام: ١٠٣]، وقوله في سورة القيامة ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] فهو يرى أن الأولى آية محكمة والثانية آية القيامة متشابهة وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية من سورة القيامة متفقة مع الآية الأولى من الأنعام ولا سبيل لذلك إلا بحملها عليها وردها إليها،كل ذلك فراراً من إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لأنها تخالف مذهبه الذي ينكر ذلك[2]. وأما تحامله على أهل السنة بالعبارات النابية فهذا واضح من خلال تفسيره كوصفهم بالحشوية والمجبرة والجهلة من العوام وغيرها من الألفاظ النابية مثل ما وصفهم به في تفسيره لسورة الفلق وغيرها.[3]

(1) ينظر: الكشاف (1/481-182).
(2) التفسير والمفسرون(1/455).
(3) ينظر: الكشاف(4/ 816).

ويتلخص ما ذُكر في مقالة الهروي[1] بعد الحديث عن قيمة الكشاف العلمية الباهرة وتميزه عن غيره، إلا إن مذهب مؤلفه وعقيدته الاعتزالية في ليّ النصوص وصرفها عن ظاهرها لموافقة مذهبه؛ قللت من شأنه وحطت من قدره فقال: "أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية – بلا نكتة بلاغية لغير الضرورة – عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفى بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يوهم بالعجز والتقصي، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الإفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدى إلى حبائله إلا ورَّاد بعد وراد من الأذكياء الحذَّاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق، وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة، ..... ومنها: أنه يذكر أهل السُّنَّة والجماعة – وهم الفرقة الناجية – بعبارات فاحشة، فتارة يُعبِّر عنهم بالمجَبِّرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد، وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار".[2]

المبحث الأول:

حكم مرتكب الكبيرة

◊ قول الزمخشري المُستَدرَك عليه:

قوله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[المائدة: آية: 37] وما يروى عن عكرمة أن نافعًا بن

(1) وهو الشيخ حيدر الهروي أحد الذين علقوا على الكشاف ووصفه وصفاً دقيقا ينظر التفسير والمفسرون (283/1) .

(2) كشف الظنون 2(176-177).

الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ ﴾ فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار. فما لفقته المجبرة – وليس بأول تكاذيبهم وفراهم – وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم– وهو بين أظهر أعضاده من قريش وانضاده من بني عبد المطلب، وهو حبر الأمة وبحرها ومفسرها بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا، وبرفعه إلى عكرمة دليلين نصيين أن الحديث فرية ما فيها مرية"[1].

وأيضاً ما ذكره كذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس"[2].

وكذلك ما ذكره في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود: ١٠٦ – ١٠٧].حيث قال: " ولا يخدعنك عنه قول المجبرة: إنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإنّ الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض النوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد"؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين، زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه، وتنبيهاً على أن نعقل

(1) الكشاف: (617/1).
(2) المصدر السابق: (40/2).

عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها ".[1]

◊ قول الشوكاني المُستدرِك:

استدرك الإمام الشوكاني على الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة: ٣٧].حيث قال:" قال الزمخشري في الكشاف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفقته المجبرة، ويا لله العجب من رجل لا يفرق بين أصحّ الصحيح، وبين أكذب الكذب على رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو؟ قد تواترت الأحاديث تواتراً لا يخفى، على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة؛ لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفراً.[2]

وكذلك أيضاً استدرك عليه أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]حيث قال:" والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية: وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، وهو لا يدري أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.[3]

واستدرك كذلك عليه في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا

(1) الكشاف: (2/414-415).
(2) فتح القدير (2/56).
(3) المصدر السابق (1/190).

شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود: ١٠٦ – ١٠٧]، حيث قال: " ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة، وفي السكوت عنه غنى" ثم ذكر كلام الزمخشري المشار إليه في تفسيره للآية.[1]

◈ **المناقشة:**

وافق الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية أئمة المفسرين من السلف كالإمام الطبري والواحدي وابن عطية والرازي والقرطبي وابن كثير والسيوطي والألوسي والقاسمي.[2]

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة[3] فهم يرون أن أمره إلى الله إن مات ولم يتب منها؛ فهو تحت مشيئة الله –عز وجل–، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، وإن عاقبه الله –عز وجل– وأدخله النار فإنه يمكث فيها بقدر ذنبه ثم يخرج منها، فإنه لا يخلد من أهل التوحيد أحد في نار جهنم.

وقد ذهب أهل السنة إلى تسمية مرتكب الكبير فاسقًا وعاصيًا ومؤمنًا ناقص الإيمان؛ فلم يسلبوا عنه اسم الإيمان مطلقًا؛ لما معه من أصل الإيمان، المتمثل في إقرار القلب ونطق اللسان، فلم يخرجوه من الإيمان؛ لما معه من مطلق الإيمان، وإن قصر في بعض الأوامر، أو وقع في بعض المنهيات، ولم يثبتوا له الإيمان المطلق لما ارتكب من المعاصي، أما في الآخرة فقد حكموا عليه بأنه تحت المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه

(1) المصدر السابق (732/2).

(2) ينظر: جامع البيان (406/8)، والوسيط (184/2)، والمحرر الوجيز(187/2)، ومفاتيح الغيب (189/11)، والجامع لأحكام القرآن (448/7)، وتفسير القرآن العظيم(393/3-394)، والدر المنثور (68/3)، وروح المعاني (425/3)،ومحاسن التأويل (1371/4).

(3) ينظر: جامع البيان (652/6)،وشرح العقيدة الطحاوية (361)،ومجموع الفتاوى (655/11)،و الجامع لأحكام القران (161/5)،وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(603/1).

وإن شاء غفر له لا يخلد في النار، ويشهد لذلك ما يلي:

1-آيات العفو والتوبة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨]

فجعل الله -عز وجل-كل المعاصي دون الشرك به سبحانه تحت مشيئته، إن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذب بقدر الذنب بعدله وحكمته، وكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى: ٢٥].

وكقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]

وكذلك نصوص الوعد لمن يعمل الصالحات وهو مؤمن، كقوله تعالى ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ [الزلزلة:7]. وكقوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

قال الرازي: وترجيح عمومات الوعد أولى؛ لأنها أدخل في باب الكرم الإلهي من عمومات الوعيد. ولأن رحمة الله تعالى سابقة على غضبه، بل تغلب غضبه فكان ترجيح عمومات الوعد أولى[1].

2-ما صح عن أنس بن مالك -رضي الله عَنه- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- قال: « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ »[2]

3-وكذلك ما ثبت عن يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنْهما-: حيث قَالَ: « كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ قَالَ فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

(1) الرازي: التفسير الكبير 171/3.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الرقاق باب صفة الجنة والنار حديث رقم (6559)

يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-قَالَ فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ ﴾ [آل عمران:192] ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠] فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ قَالَ فَقَالَ أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ السَّلَام- يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ قَالَ ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ قَالَ وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا قَالَ يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ قَالَ فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَجَعْنَا »[1].

4-ما ثبت عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: أتيت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ» قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ [2] وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر؛ فبين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- أن من معه أصل الإيمان فمآله إلى الجنة، وإن وقع في بعض المحرمات، فهو متوعد عليها بالعذاب الشديد، وأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء

(1) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم (320).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: باب صفة الجنة والنار برقم (6558) ، ومسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم(191) واللفظ له.

عفا عنه بعمل صالح أو حسنات ماحية أو شفاعة أو بفضل الله ورحمته ويؤيده النصوص التالية:

1-ما صح عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-: يقول الله -عزوجل-: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» [(1)]؛ فهذا الحديث القدسي نص صريح في أن الله -عز وجل- يغفر الذنوب كلها صغيرها وكبيرها ولو ملأت الأرض، إذا جاءه صاحبها موحدًا بالله غير مشرك به أحدًا، وهو نص الآية السابقة ذكرها وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ١١٦].

2-ما ثبت عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- قال وحوله عصابة من أصحابه، «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» [(2)] فهذا نص صريح في أن صاحب الذنب تحت مشيئة الله -عز وجل- إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[النساء: ١١٦].

(1) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر. باب فضل الذكر والدعاء والتقرب. حديث رقم (2687).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: حدثنا أبو اليمان يرقم (18)، ومسلم في صحيحه في كتاب: الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها برقم (1709).

3-نصوص الشفاعة التي جاء فيها إثبات الشفاعة لأهل الكبائر ومنها وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- « شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[1] . فهذه الأدلة من الكتاب والسنة صريحة في عدم تكفير مرتكب الكبيرة وأنه لا يخلد في النار من مات على التوحيد، وأنه مهما عذب في النار فإنه سيكون مآله الى الجنة.

وبهذا قال أئمة السلف حيث قال الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ البغوي في شرح السنة مبينًا هذا المذهب: "اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَخْرُجُ عَنِ الإِيمَانِ بِارْتِكَابِ شَيْءٍ مِنَ الْكَبَائِرِ إِذَا لَمْ يَعْتَقِدْ إِبَاحَتَهَا، وَإِذَا عَمِلَ شَيْئًا مِنْهَا، فَمَاتَ قَبْلَ التَّوْبَةِ، لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ، كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ، بَلْ هُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فِي الْبَيْعَةِ" [2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية " وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:92]"[3] .

وقال ابن أبي العز الحنفي: " إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري

(1) أخرجه أبو داود في سننه(236/4)، كتاب السنة: باب في الشفاعة، حديث(4739)، والترمذي في سننه(625/4) كتاب صفة القيامة: باب 11، حديث(2435) وأخرجه أحمد في مسنده(213/3) وابن حبان في صحيحه(387/14) الإحسان، رقم(6468) والحاكم في المستدرك(69/1) كتاب الإيمان من حديث أنس رضي الله عنه. وصححه الألباني.انظر حديث رقم (3714)في صحيح الجامع.

(2) شرح السنة للبغوي (103/1) وانظر: الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري (2/ 765)

(3) شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص (234).

الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة:178] إلى أن قال: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة: 178]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ [الحجرات: 9] إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: 10]"[1].

أما ما فسر الزمخشري به الآيات السابقة فهو بما يوافق مذهبه في تكفير مرتكب الكبيرة إن مات عليها ولم يتب منها، وأن من استحق النار فدخلها فإنه لا يخرج منها أبدا، وهو مذهب أصحابه من المعتزلة حيث يرون أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا أما في الآخرة فهو خالد مخلد في النار

وهو ما قرره القاضي عبد الجبار (.. صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقًا، وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه، هو سبب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن؛ بل له منزلة بينهما)[2].

(1) شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي (206/1).

(2) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار (ص 697).

وقد ذكر غير واحد من علماء المعتزلة إجماعهم على ذلك، منهم عبد الله بن أحمد البلخي الكعبي في كتابه مقالات الإسلاميين، وأحمد بن يحيى المرتضى في كتابه طبقات المعتزلة[1].

قال البلخي: " وأجمعوا أن الفاسق المرتكب للكبائر، لا يستحق أن يسمى بالاسم الشريف، الذي هو الإيمان والإسلام، ولا بالكفر، بل يسمى بالفسق كما سماه الله، وأجمع عليه أهل الملة، وهذا هو القول بالمنزلة بين المنزلتين"[2].

أما عن حكمه في الآخرة فبينه القاضي عبد الجبار – من كبار شيوخ المعتزلة – بقوله: " إن من ارتكب الكبائر فهو من أهل النار"[3]

وتشنيعه على أهل السنة ورده للأحاديث الصحيحة الصريحة في هذه المسألة وتمسكه بالآثار الضعيفة مثل ما استشهد بالأثر المنسوب لابن عباس –رضي الله عَنه– [4] فنقول له عندنا من النصوص الصحيحة الصريحة ما يؤيد هذا فكيف تعرض عنها .

قال الألوسي:" حكاها الزمخشري وشنع إثرها على أهل السنة ورماهم بالكذب والافتراء فحقق ما قيل: رمتني بدائها وانسلت ولسنا مضطرين لتصحيح هذه الرواية ولا وقف الله تعالى صحة العقيدة على صحتها فكم لنا من حديث صحيح شاهد

(1) طبقات المعتزلة، أحمد بن يحيى المرتضى، ص 8.

(2) باب ذكر المعتزلة من كتاب مقالات الإسلاميين، لعبد الله بن أحمد البلخي الكعبي، ص 64.

(3) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 252.

(4) هذا الأثر رواه الطبري عن محمد بن حميد بن حيان التيمي الرازي وهو ضعيف ضعفه جمع من أهل العلم. قال عن البخاري: "في حديثه نظر". وقال ابن خزيمة:" لو عرفه أحمد ما أثنى عليه". وقال النسائي: "ليس بثقه" وكذبه أبو زرعة الرازي. ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: (58/2).

على حقيقة ما نقول وبطلان ما يقوله المعتزلة تبا لهم "[1]

بل يرُد ما يثبت من تفسير النبي –عليه السلام– لبعض الآيات كرده لتفسيره – عليه السلام– للمراد بالظلم في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾[الأنعام: ٨٢] [2]. والقاعدة التفسيرية تنص على أنه " إذا ثبت الحديث وكان نصاً في تفسير الآية فلا يصير إلى غيره" [3]

الخلاصة:

يجب النظر للآيات والأحاديث نظرة شمولية؛ إذ أنَّ نصوص الوعيد التي احتج بها المعتزلة والخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة مقابلة بنصوص الوعد بالجنة لمن مات على التوحيد والوعد بمغفرة الذنوب عدا الشرك، والوعد بالخروج من النار لمن استحق دخولها. وقد بين أهل السنة والجماعة أن المخلدين في النار هم الكفار، والمشركين الشرك الأكبر، والمنافقين النفاق الاعتقادي. وبهذا يظهر لنا صحة استدراك الإمام الشوكاني وبيانه لعقيدة أهل السنة بالأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا يمكن ردها لثبوتها عن المعصوم –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم– الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى وبطلان ما ذهب إليه الزمخشري ورده لمخالفته للنصوص الشرعية والقاعدة التفسيرية تنص على أن "كل تفسير خالف القرآن أو السنة أو إجماع الأمة فهو رد" [4]

---

(1) روح المعاني للألوسي (425/3)

(2) وتفسيره –عليه الصلاة والسلام– لآية الأنعام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾[الأنعام: ٨٢]. ففسر الظلم بالشرك ينظر: صحيح البخاري كتاب التفسير. باب ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ حديث رقم (4629). وقد رد هذا التفسير النبوي الصحيح الزمخشري.

(3) قواعد الترجيح للحربي (191/1).

(4) قواعد الترجيح للحربي (214/1).

المبحث الثاني

المفاضلة بين الملائكة والأنبياء وسائر البشر

◈ قول الزمخشري المُستَدرَك عليه:

*قوله في المفاضلة بين الملائكة والأنبياء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]. حيث قال:" فإن قلت من أين دل قوله:﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ على ان المعنى ولا من فوقه قلت من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة، كانه قيل لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية، فكيف بالمسيح ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة"[(1)].

وكذلك في قوله في المفاضلة بين الملائكة والبشر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ﴾ [يوسف: ٣١] فقال في تفسيرها " نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه، لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله –عز وجل– ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل

(1) الكشاف: (581/1).

الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب" [1]

وكذلك في قوله في المفاضلة بين الملائكة وبني آدم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].حيث قال: " هو ما سوى الملائكة وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم. والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأنى قربهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منها: قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة . فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . ورووا عن أبي هريرة أنه قال: "لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده" . ومن ارتكابهم أنهم فسروا كَثِيراً بمعنى: جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع ممن خلقنا، على أن معنى قولهم عَلَى جَمِيعٌ مِّمَّنْ خَلَقْنَا أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون . فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأنّ جبريل –عليه السلام– غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم" [2].

(1) المصدر السابق (448/2).

(2) الكشاف: (653/2-655).

قول الشوكاني المُستدرِك:

استدرك الإمام الشوكاني على الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]. حيث قال "وقد استدلّ بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع، وادّعى أن الذوق قاض بذلك، ونعم الذوق العربي إذا خالطه محبة المذهب، وشابه شوائب الجمود كان هكذا، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه المقالة إمام ولا مأموم أو لا كبير ولا صغير أو لا جليل ولا حقير، لم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأناً من المعطوف عليه، وعلى كل حال، فما أردأ الاشتغال بهذه المسألة، وما أقلّ فائدتها، وما أبعدها عن أن تكون مركزاً من المراكز الشرعية الدينية".(1)

واستدرك كذلك عليه في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا.... ﴾ [يوسف:31]. حيث قال" واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بني آدم، فإنهنّ لم يقلنه لدليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]. وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته. فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة أعني: مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف".(2)

(1) فتح القدير (854/1).

(2) فتح القدير (31/3-32).

وأيضا أستدرك على المعتزلة عموما والزمخشري من المعتزلة ويدخل في هذا العموم حيث قال في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]" وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولا دلالة بها على ذلك، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بني آدم بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلا عليه، فيحتمل أن يكون مساويا للإنسان، ويحتمل أن يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال والتأكيد بقوله: ﴿ تَفْضِيلًا ﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه "[1]

المناقشة:

اختلف العلماء في مسألة المفاضلة بين الملائكة وبني آدم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقاً:

وإلى هذا القول ذهب المعتزلة، والقدرية حتى أنهم ألفوا في تفضيل الملائكة الكرام على بني آدم المؤلفات الكثيرة منها كتاب كبير يتكون من عشرين جزءاً لأحد رؤسائهم [2] وتبعهم في هذا بعض الأشعرية، وابن حزم، [3] واستدلوا بأدلة من الكتاب والسنة وهي:

(1) فتح القدير (3/339-340).

(2) ذكره البزدوي في وأصول الدين ص (205) وذكر أنه اطلع عليه ومؤلفه هو جعفر بن حرب.

(3) ينظر: مقالات الإسلاميين (48،226، 439) وشرح اعتقاد أهل السنة (7/235)، والفصل في الملل والنحل (5/20)، والمحلى (1/13)،وأصول الدين للبزدوي (166)، وأبكار الأفكار (3/150)، والمواقف في علم الكلام (368)، تفسير أبي القاسم الكعبي البلخي (202).

● قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]". ففي هذه الآية دلالة على أفضلية الملائكة الكرام على البشر؛ لأن الله تعالى فضل الأنبياء –عليهم السلام– على كثير ممن خلق، البشر ووجه الاستشهاد في هذه الآية أنه قال على كثير ولم يقل على كل، ومن عساه الخارج من هذا الكثير الا الملائكة. (1)

● قوله سبحانه ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]. ففي هذه الآية دلالة على أفضلية الملائكة الكرام على الأنبياء –عليهم السلام–، إذ بينت ان الملائكة الكرام أفضل من المسيح –عليه السلام–، لابتدائها بالمسيح –عليه السلام–، ثم ثنت بالملائكة الكرام المقربين إذ ورد ذكر الملائكة الكرام على سبيل الاحتجاج في قوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي لما لم يستنكف الملائكة كان عدم استنكاف المسيح –عليه السلام– أولى، ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه. (2)

● قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا.... ﴾ [يوسف:31]. ففي هذه الآية دلالة على أفضلية الملائكة الكرام على الأنبياء –عليهم السلام–، إذ بينت أفضلية الملك على النبي، لأن نبي الله بوسف –عليه السلام– قد شبه بالملك الكريم. ولا يعني ذلك أن المقصود التشبيه بصورته وجماله فقط بل بسيرة الملك المرضية، لأنه قال: ﴿ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١] فشبهه بالملك الكريم لنفي شر الشهوة، والحرص على من تقوم به الشهوة لأن من صفات الملك غض البصر والبعد عن الميل إلى الحرام، مما يعني اختصاص الملائكة الكرام بعلو الدرجات في صفاتهم وأعمالهم على درجات

(1) ينظر: المطالب العالية (415/7)، وأبكار الأفكار(155/3)،الأربعين في أصول الدين للرازي (381).

(2) ينظر: المطالب العالية (413/7)، وأبكار الأفكار(156/3)،الأربعين في أصول الدين (371)، والمحلى (14/1).

البشر.[1]

● قوله تعالى في وصف الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19] فقالوا في هذه الآية دلالة على أفضلية الملائكة الكرام على الأنبياء -عليهم السلام-، إذ وصف الله تعالى الملائكة الكرام في هذه الآية بأنهم عنده والعندية أتت بمعنى الفضيلة والمزية لأنها عندية القرب والشرف، وهذه الفضيلة خاصة بالملائكة الكرام دون غيرهم فلذلكم هم أفضل البشر، فقالوا: هذه الآية دليل على أفضلية الملائكة الكرام على البشر، ولو كانوا متساوين مع البشر أو أقل منهم لما تم هذا الاستدلال، لأنه لا يتم إلا بالأفضل على المفضول.[2]

● قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-: يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ »[3] فقالوا في هذا الحديث القدسي دلالة ونص على أفضلية الملائكة الكرام على الأنبياء -عليهم السلام-، إذ دل على أن ملاء الملائكة الكرام أشرف وأعلى من ملأ البشر.[4]

القول الثاني: تفضيل الأنبياء وصالح البشر على الملائكة:

(1) ينظر: المطالب العالية (415/7)، وأبكار الأفكار(155/3)، الأربعين في أصول الدين للرازي (381).

(2) ينظر: المطالب العالية (409/7)، وأبكار الأفكار(152/3)، الأربعين في أصول الدين للرازي (373).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] رقم 7405، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله حديث رقم (2675).

(4) ينظر: المطالب العالية (420/7)، والأربعين في أصول الدين للرازي (382).

وهذا مذهب جمهور أهل السنة والجماعة،[1] وكذلك جمهور أصحاب الأشعري[2] وكذلك الشيعة الإمامية[3] واستدلوا لهذا القول بالأدلة التالية:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أفضلية الأنبياء -عليهم السلام- على الملائكة الكرام، وذلك أن الله جعل آدم -عليه السلام- خليفته في الأرض. والمراد من هذه الخلافة خلافة الولاية، وكما أن خليفة الملك أو السلطان أعظم وأفضل من كل من يقعون تحت ملكه وسلطانه من الأقوام، لذلك وجبت أفضلية آدم -عليه السلام- لكونه أشرف الخلق.[4]

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣١ – ٣٣].

ففي هذه الآيات الكريمات دلالة على أفضلية الأنبياء -عليهم السلام- على الملائكة الكرام، وذلك أن الله تعالى قد علم آدم -عليه السلام-، فصار أعلم من الملائكة الكرام لقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: 32] حتى أنبأهم بأسمائهم، فدل ذلك على أن آدم -عليه السلام- يعلم ما مالم تكن تعلمه الملائكة

(1) ينظر: لوامع الأنوار البهية (398/1-399)،وشرح العقيدة الطحاوية (282-290).

(2) ينظر : كتاب أصول الدين للبغدادي ص(295)،وشرح المقاصد للتفتازاني (200/2)، وأبكار الأفكار (150/3).

(3) ينظر : أوائل المقالات في المذاهب المختارات ص (52)،رسائل الشريف المرتضى المجموعة الثانية ص (156)، مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي (81/1).

(4) ينظر : المطالب العالية (406/7).

الكرام، وكما هو معروف فإن العالم أفضل من غير العالم لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] [1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]. ففي الآيات السابقة دلالة على أفضلية الأنبياء –عليهم السلام– على الملائكة الكرام، وذلك بأمر الله تعالى لهم بالسجود لآدم –عليه السلام–، لأن المسجود أفضل من الساجد، كون الأدنى فيه تذلل ولا يكون إلا للأعلى والأفضل منه. وهذا التفضيل هو الذي دعا إبليس إلى الامتناع عن السجود لآدم –عليه السلام، إلا لكونه قد شعر بأن هذا تفضيل وتكريم لآدم على الملائكة فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62]، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. [2]

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أفضلية الأنبياء –عليهم السلام– على الملائكة الكرام، وذلك أن الله تعالى قد اصطفى هؤلاء الأنبياء عليهم السلام على العالمين، أي على كل المخلوقات؛ لأن العالمين هو كل ما سوى الله تعالى، والملائكة الكرام من ضمن العالمين، لذلك وجبت أفضلية الأنبياء –عليهم السلام– على

(1) ينظر: المطالب العالية (406/7)، والأربعين في أصول الدين (369)،المواقف في علم الكلام (367) ولوامع الأنوار البهية (402/1).

(2) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص (303)، المطالب العالية(405/7)، أبكار الأفكار (150/3) الأربعين في أصول الدين ص (368)،المواقف في علم الكلام ص (367)، ومسألة التفضيل بين الملائكة الكرام والأنبياء عليهم السلام (1651-1652).

الملائكة الكرام. [1] وكل هذه الآيات التي تقدم ذكرها في تفضيل الأنبياء -عليهم السلام-.

● أما في صالح البشر فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].فدلت الآية على أن صالح البشر من المؤمنين خير البرية. قال الإمام ابن كثير:" وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين على الملائكة"[2]

القول الثالث: هو التوقف والسكوت عن التفضيل:

وذهب بعض العلماء إلى التوقف والسكوت كأبي العز الحنفي والكيا الهراسي وغيرهم[3]

ويرى الإمام ابن أبي العز الحنفي أن الواجب في هذه المسألة هو الإيمان بأصول الإيمان والتي منها الإيمان بالملائكة الكرام والأنبياء -عليهم السلام-، من غير تفضيل بينهما حيث قال:" وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجبات لبين لنا نصا، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا, وَحَّدَ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاء فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ - رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرِ نِسْيَانٍ - فَلا تَسْأَلُوا

(1) ينظر: المطالب العالية(406/7)، والأربعين في أصول الدين ص (370)، ولوامع الأنوار البهية (402/1).

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (625/7).

(3) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص (282)،والحبائك في أخبار الملائك ض (241)، ولوامع الأنوار البهية (409/1).

عَنْهَا »[1]. فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفيا وإثباتا والحالة هذه أولى. ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة؛ لأن الأدلة هنا متكافئة.[2]

ونقل كذلك ابن أبي العز عن الشيخ تاج الدين الفزاري من مصنفه الذي أسماه الإشارة في البشارة في تفضيل البشر على الملك حيث قال في آخره " اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد. ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه، لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب"[3]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية "المسألة على هذا الوجه لا أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة"[4].

وقد استثنى بعض القائلين بالسكوت والإمساك والتوقف عن التفضيل بين الملائكة والأنبياء النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- من قولهم هذا؛ لأنهم يرون أنه هو أفضل الخلق أجمعين بلا خلاف وأن فضله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- لم يبلغه ملك

(1) أخرجه الدارقطني في سننه كتاب الأشربة وغيرها، باب الصيد والذبائح والأطعمة (298/4)، والطبراني في الكبير(221/22) وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح (417/1)،وحسنه النووي في رياض الصالحين ص (544)، وكذلك ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (242)،وحسنه الألباني في تحقيقه لكتاب الإيمان ص (44)، وكلك في شرحه للعقيدة الطحاوية ص (238).

(2) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص (282)،والحبائك في أخبار الملائك ض (241)، ولوامع الأنوار البهية (409/1).

(3) شرح العقيدة الطحاوية ص (282-283).

(4) مجموع الفتاوى (354/4).

مغرب ولا نبي مرسل، وأن هذه المسألة من بدع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد.

الخلاصة:

وبعد عرض هذه الأقوال في المسألة يتبين أن الأدلة المعتمدة في القولين الأول والثاني آيات قرآنية وبعض من الأحاديث ومع كونها أدلة نقلية إلا أنها أدلة ظنية وليست يقينية ومتكافئة نفياً وإثباتاً، إذ لا يوجد دليل قاطع فيها، بل كل من خاض فيها من العلماء لم يسلم كلامه من وجود الضعف والاضطراب فيه كما حكى ذلك ابن أبي العز عن تاج الدين الفزاري[1].

بل هي من المسائل الظنية التي لا حظ لليقين فيها وأن القول بالتوقف والسكوت في مسألة التفضيل بينهم هو الأولى وذلك لثلاثة أمور:

الأول: أن هذه المسألة من فضول الكلام التي لم يتطرق إليها صدر الأمة وأن الجهل بها لا يضر والعلم بها لا ينفع وهي ليست من التكاليف الواجب على الناس معرفتها، بل هي من فضول المسائل التي لم يخض بها الكثير من أهل الأصول؛ لأن حقيقة الملائكة الكرام وصفاتهم في الكتاب والسنة تدل على سمو مقامهم وعلو مكانتهم. وهي من المسائل الظنية التي لا حظ لليقين فيها لخلوها من الدلائل القطعية لا نفياً ولا إثباتا، بل وليس للأدلة العقلية أي دور فيها لأن الملائكة –عليهم السلام– عالم غيبي.

(1) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص (282-283).

قال الرازي:" من عرف الملك ما هو؟ وكيف صفاته؟ لم يأذن عقله في أن يخوض في هذا البحث"[1]. والقاعدة الترجيحية تنص على أنه "لا يصح حمل الآيات على تفسيرات وتفصيلات لأمور مغيبة لا دليل عليها من القرآن أو السنة "[2].

الثاني: أنه لا يوجد أدلة توجب التفاضل بين جنسين مختلفين فالأول مخلوق من نور، والثاني مخلوق من طين، ولكل واحد منهم مهام ووظائف خاصة، وإنما التفضيل يكون بين الأنداد والمتشابهين في الخلقة أو بين أصحاب الجنس الواحد الذين لهم صفات واحدة وقدرات متقاربة حتى تكون المقارنة عادلة.

الثالث: أن من قبل بالتفضيل فأفضل ما قيل فيه هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وأيده تلميذه أبن القيم وذكره ابن أبي العز ورجحه بعض المعاصرين[3]. حيث سأل شيخ الإسلام ابن تيمية عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل فأجاب بقوله:" بِأَنَّ صَالِحِي الْبَشَرِ أَفْضَلُ بِاعْتِبَارِ كَمَالِ النِّهَايَةِ وَالْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ بِاعْتِبَارِ الْبِدَايَةِ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْآنَ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى مُنَزَّهُونَ عَمَّا يُلَابِسُهُ بَنُو آدَمَ مُسْتَغْرِقُونَ فِي عِبَادَةِ الرَّبِّ وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الْآنَ أَكْمَلُ مِنْ أَحْوَالِ الْبَشَرِ . وَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ فَيَصِيرُ صَالِحُو الْبَشَرِ أَكْمَلَ مِنْ حَالِ الْمَلَائِكَةِ ."[4]

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: " وَبِهَذَا التَّفْصِيلِ يَتَبَيَّنُ سِرُّ التَّفْضِيلِ وَتَتَّفِقُ أَدِلَّةُ الْفَرِيقَيْنِ وَيُصَالِحُ كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى حَقِّهِ"[5].

(1) المطالب العالية (405/7).

(2) قواعد الترجيح عند المفسرين (225/1).

(3) ينظر: مجموع الفتاوى (343/4)،وبدائع الفوائد(197/3)،وشرح العقيدة الطحاوي ص (282)،ومجموع فتاوى ابن عثيمين (281/1).

(4) مجموع الفتاوى (343/4).

(5) بدائع الفوائد (3197).

المبحث الثالث:

دخول الجنة بالأعمال أم بالفضل.

◈ قول الزمخشري المُستَدرَك عليه:

قوله عند تفسره لقوله تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:43]" بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطلة" [1].

◈ قول الشوكاني المُستدرِك:

استدرك الإمام الشوكاني على الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ **[الأعراف: ٤٣].**

فقال: "قوله: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:43] أي وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقيل لهم تلكم الجنة أورثتموها، أي ورثتم منازلها بعملكم. **قال في الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة انتهى.أقول: يا مسكين هذا قاله رسول الله** -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- **فيما صح عنه** «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ [2].

والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر. ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل، لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا

(1) الكشاف: (101/2).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب القصد والمداوة حديث رقم 6463،ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله؛ بل برحمة الله تعالى حديث رقم 2816.

بهذا الإقدار، لكان القائلون به محقة لا مبطلة، وفي التنزيل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾[النساء: ٧٠] وفيه: ﴿ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ ﴾ [النساء: ١٧٥]"[1].

المناقشة:

مسألة دخول الجنة هل هي بالعمل أو بالفضل اختلف فيها على قولين:

القول الأول: أن دخول الجنة بفضل الله تعالى ورحمته وليست موجبة ومعاوضة بالعمل.

ذهب لهذا القول جمهور المفسرين كالواحدي، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبي حيان، وابن كثير، والثعالبي، والألوسي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور[2] هو مذهب أهل السنة والجماعة[3] واستدلوا بما يلي:

1- ما ثبت عن أبي هريرة -رضي الله عَنه- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[4]

2- إن الإراث دل على أنها عطية بدون قصد تعاوض ولا تعاقد، وأنها فضل محض

(1) فتح القدير: (290/2-291).

(2) ينظر: الوسيط: (223/9)، والمحرر الوجيز(402/2)، ومفاتيح الغيب(1471-72)، والجامع لأحكام القرآن (223/9)، وأنوار التنزيل(339/1)، والبحر المحيط (55/5)، وتفسير القرآن العظيم(303/6)، والجواهر الحسان(544/1)، وروح المعاني(492/4)، وتيسير الكريم الرحمن(315)، والتحرير والتنوير(134/4-135).

(3) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص:(441).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب القصد والمداوة حديث رقم 6463،ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله؛ بل برحمة الله تعالى حديث رقم 2816.

من الله تعالى، لأن إيمان العبد بربه وطاعته إياه لا يوجب عقلا ولا عدلا إلا نجاته من العقاب الذي من شأنه أن يترتب على الكفر والعصيان، وإلا حصول رضى ربه عنه لا يوجب جزاء ولا عطاء، لأن شكر المنعم واجب، فهذا الجزاء وعظمته مجرد فضل من الله تعالى على عبده شكراً لإيمانه به وطاعته.

3- أن الباء في قوله تعالى: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢] للسبب المجازي أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خلق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته فالأعمال أمارة من الله تعالى ،ودليل على قوة الرجاء، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله والقسم فيها على قدر العمل وقوله: ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ [الزخرف: ٧٢] مشير إلى الأقسام وليس ذلك واجباً على تعالى.

4- أن التصريح بسب لا يستلزم نفي سبب آخر. ولولا التفضل من الله سبحانه على العامل بإقداره على العمل، لم يكن عمل أصلا. والشاهد على هذا من الآيات قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[النساء: ٧٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ [النساء: ١٧٥].

5- أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - نفى دخول الجنة بالأعمال فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيْرَةَ-رضي الله عَنه- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- يَقُولُ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: «لاَ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ...»[1]. ولا تنافي بين الأمرين لأن الباء التي نفت

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب القصد والمداوة حديث رقم 6463،ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى حديث رقم 2816.

الدخول هي باء المعاوضة، التي يكون فيها أحد العوضين مقابلا للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإن لم يكن مستقلا بحصوله، وقد جمع النبي بين الأمرين بقوله: «فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا»[1].

القول الثاني: أن دخول الجنة بسبب الأعمال بل هي السبب لدخول الجنة، وليس تفضلا من الله عليهم، وإنما أقطعهم إيها بسبب عملهم وليس تفضلا منه عليهم وإنما استحقوها بحق مستحق لهم وهو العمل الذي قدموه فكان دخولهم الجنة بهذا العوض الذي قدموه فجعلوا العمل هو العوض فاستحقوا وجوبا الجنة وهذا مذهب المعتزلة وهو القول الذي تبناه الزمخشري ونصره. وهذا قول باطل لمعارضته الحديث الصحيح الصريح عن النبي –صلَّى عليه وسلَّم– في بيان هذه المسألة .

الخلاصة:

وبعد مناقشة المسألة يتبين صحت استدراك الشوكاني، وأن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو أن دخول الجنة بفضل الله ورحمته، وأن الأعمال ليست معاوضة وحق مقتطع لدخول الجنة لكل من عمل، وإنما هي أسباب وفق الله العامل للعمل بها بفضله فقبلها بفضله، وأعطاهم عليها الدرجات العالية في الجنة ويتفاضلوا بها في منازلهم الجنة، بنص تفسير الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام بقوله: « لَنْ يَدْخُل أَحَدكُمْ الْجَنَّة بِعَمَلِهِ.... »[2] ولا ينظر بعد هذ النص الثابت في هذا الأمر إلى

(1) ينظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص:(61).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب القصد والمداوة حديث رقم 6463،ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله؛ بل برحمة الله تعالى حديث رقم 2816.

قول كائن من كان بعد قوله –صلَّى الله عليه وسلَّم– والقاعدة التفسيرية تنص على أنه **"إذا ثبت الحديث وكان نصاً في الآية فلا يصار إلى غيره"**[1].

المبحث الرابع:

الطعن في الصحابة –رضوان الله عليهم–

◈ قول الزمخشري المُستَدرَك عليه:

قوله عند تفسره لقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]. " وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ما يشغله عن تسيير هذا الحديث"[2]

◈ قول الشوكاني المُستدرِك:

استدرك الإمام الشوكاني على الزمخشري في طعنه في صحابة رسول الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] . فقال: "وأما الطعن على صاحب رسول الله، وحافظ سنته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو –رضِي الله عَنه–، فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أيّ واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان، وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة، ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلم بما لا تدري، في الله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية، والبعد

(1) قواعد الترجيح عند المفسرين(191/1).
(2) الكشاف: (415/2).

عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه". (1)

المناقشة:

جمهور أهل السنة والجماعة مجمعون على محبة صحابة رسول الله -رضوان الله عليهم- جميعاً، وذلك لثناء الله -عز وجل- عليهم وثناء رسوله ومحبه عليه الصلاة والسلام لهم وهم من نصر الله بهم رسوله وأعلى بهم كلمة التوحيد وقد -رضِي الله عنْهم-، ووعدهم الحسنى واستدلوا على ذلك بما يلي: (2)

1- الآيات الدالة على فضلهم وسابقتهم في الإسلام ونصرة دينه ونبيه عليه الصلاة والسلام، والثناء عليهم، ورضاه عنهم، ووعدهم بالحسنى كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

(1) فتح القدير: (733/2).

(2) ينظر: شرح العقيدة الطحاوي ص (475-476)، وشرح العقيدة الواسطية : (236-237).

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨ – ٩].

2- ما ثبت عن النبي-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- في قوله: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي. فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْل أُحُدٍ ذَهَباً، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَه» [(1)].

3-صح عنه -عليه الصلاة والسلام- قوله: « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » [(2)]

4-من منهج أهل السنة والجماعة البراءة من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

5-من منهج أهل السنة والجماعة الإمساك عن كل ما شجر بينهم في زمن الفتنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:" ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون"[(3)].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-، باب قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-: " لوكنت متخذا خليلاً" حديث رقم (3673)، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة- رضي الله تعالى عنهم- ،باب تحريم سب الصحابة -رضِي الله عَنهم- حديث رقم (2540)وحديث رقم (2541).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا استشهد، حديث رقم (1651) وحديث (2652)، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ،باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حديث رقم (2533).

(3) شرح العقيدة الواسطية: (248-249).

بل لهم من السوابق والفضائل ما يكون سببا في مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، ولهم من الحسنات التي تمحوا السيئات ما ليس لمن بعدهم -رضي الله عنْهم- وأرضاهم أجمعين.

أما مذهب المعتزلة في صحابة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-فهو بغضهم لصحابة رسول الله وسبهم والتطاول عليهم وعدم تقديرهم ومحبتهم، والبراءة منهم وعدم توليهم وما ورد في كتبهم خير شاهد على ذلك وما ذكره الزمخشري فيما استدرك عليه فيه هو قليل من كثير من تطاولهم على صحابة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- والفرية عليهم ومن تلك الأقوال الباطلة ما جاء عن زعماءهم ما يلي:

1 – رمي زعيم المعتزلة إبراهيم النظّام لأبي بكر الصديق-رضي الله عنْه- بالتناقض عندما روى عنه امتناعه عن التفسير بالرأي من غير علم في بعض الآيات المتشابه وتفسيره لبعض الآيات المحكمة التي يجب على أهل العلم تبينها للناس وهي آية الكلالة فقال: هذا تناقض كيف يجترئ على القول بالرأي من يخشى الله ويستعظم القول عليه كما في القول الأول. وكذلك طعنه في حافظ السنة صاحب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- حيث قال عنه النظام: "لقد أكذبه عمر وعثمان وعلي عائشة" وقد كذب عليهم النظام وافترى على صحابة رسول الله -رضوان الله عليهم- بل إن ذلك كان محض اختلاف في وجهات النظر كما يحصل بين خلاف الفقهاء.[1]

2- ما زعمه واصل بن عطاء وعمروا بن عبيد بفسق إحدى الطائفتين يوم الجمل، إما طائفة علي أو طائفة طلحة والزبير وعائشة وردوا شهادتهم[2]

(1) ينظر: المعتزلة بين القديم والجديد ص (97).

(2) ينظر:الفرق بين الفرق للبغدادي ص (120).

3- قول بشر بن المعتمر في أرجوزته: "نبرأ من عمرو ومن معاوية " [1]

4- الحديث الموضوع والمفتري على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- الذي رواه عمرو بن عبيد عن الحسن: « إِذاَ رَأَيْتُم مُعَاوِيَة عَلَى مِنْبَرِي فَاقْتُلُوه» [2]

الخلاصة:

تبين من هذا الاستدراك صحة استدراك الإمام الشوكاني على هذ القول الباطل من هذا المذهب الفاسد مذهب المعتزلة، وأن سبب قولهم هو ردهم لكلام الله — عز وجل - وما ثبت من كلام رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- لمجرد مخالفته لمذهبهم وتعارضه لما تنطوي عليه نفوسهم، وهذا من الخذلان أن يتطاولوا على من زكاهم الله وحرم سبهم وشهد لبعضهم بالجنة، وهم حملة الشريعة وممن شاهدوا التنزيل ونقلوا سنة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- إلينا، وهم عدول كلهم -رضوان الله عليهم-، فقد

(1) طبقات المعتزلة ص (53).

(2) وهذا حديثٌ كذّبَه وأنكرَه سائرُ العلماء، منهم: أيوب السختياني : ينظر: الكامل لابن عدي 101/5، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو زرعة الرازي ينظر: الضعفاء 427/2، وابن حبان في المجروحين (157/1 و250 و172/2)، وابن عدي في الكامل ينظر: (146/2 و209 و101/5 و200 و314 و83/7)، والذهبي في الميزان (؟)، وابن كثير في تاريخه (434/11)، وغيرهم من الحفاظ. وقال الإمام البخاري بعد أن أعل أشهر طرقه: إن هذه الأحاديث ".. ليس لها أصول، ولا يثبت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم- خبرٌ على هذا النحو في أحدٍ من أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-، إنما يقولُه أهلُ الضَّعف". (التاريخ الأوسط 256/1) ،وقال العقيلي (259/1): "ولا يصح من هذه المتون عن النبي -عليه السلام- شيءٌ من وجه يثبت" وقال عنه ابن كثير: "وهذا الحديث كذب بلا شك ولو كان صحيحا لبادر الصحابة إلى فعله لأنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم" وقال هذا أرسله عمرو بن عبيد عن الحسن وهو من كبار المعتزلة وهو مكذوب ينظر: البداية والنهاية (133/8).وقال الجورقاني في الأباطيل (200/1): "هذا حديث موضوع باطل لا أصل له في الأحاديث، وليس هذا إلا من فعل المبتدعة الوضاعين؛ خذلهم الله في الدارَين، ومن اعتقد هذا وأمثالَه؛ أو خطر بباله أن هذا جرَى على لسان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-؛ فهو زنديقٌ خارجٌ من الدين".

جاهدوا بأموالهم وأنفسهم لتبليغ هذا الدين ونصرته وإعلاء شأنه، وكل قول مثل ما ذكر الزمخشري وأصحابه فهو مردود وباطل فكل تفسير خالف القرآن أو السنة أو إجماع الأمة فهو رد[1].

قال الطحاوي: "ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله، وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق"[2].

المبحث الخامس:

تأثير العين

◈ **قول الزمخشري المُستَدرَك عليه:**

قوله عند تفسره لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧].

" فإن قلت: هل للإصابة بالعين[3] وجه تصحّ عليه ؟ قلت: يجوز أن يحدث الله –عز وجل– عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللا من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوي: هو أثر العين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [المدثر: ٣١]. وعن النبي–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم–: أنه كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ»[4].

---

(1) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (214/1).

(2) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (501).

(3) والعين هي: نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر. ينظر: فتح الباري (4095/3).

(4) الكشاف: (469/2).

◈ **قول الشوكاني المُستدرِك:**

استدرك الإمام الشوكاني على الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]. راداً على المعتزلة المنكرين لإصابة العين فقال: "وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم، والبلخي، أن للعين تأثيراً، وقالا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء، حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به. وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأيّ مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حقّ، وأصيب بها جماعة في عصر النبوّة، ومنهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم-. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدّعيه على العقل، حتى يضمّ إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة، وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة، وإجماع من يعتدّ به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب"[(1)]

المناقشة:

مذهب أهل السنة والجماعة من المفسرين وغيرهم أن العين حق كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم [(2)] وقد ذكر المفسرون أن يعقوب -عليه السلام-

(1) فتح القدير: (3/ 56).

(2) ينظر:جامع البيان (13/236-239)، وحد صيغة العزو

خشي على أولاده من العين؛ لأنهم كانوا رجالاً لهم جمالٌ وهيئة، فخاف عليهم إذا دخلوا جماعة من طريق واحد، وهم ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في الدخول إليها. وهذا هو المأثور عن السلف قال الإمام ابن كثير –رحمه الله–: "يقول تعالى إخباراً عن يعقوب –عليه السلام–: أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب، ومجاهد والضحاك قتادة والسدي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه" [1]

واستدل أهل السنة على مذهبهم أن العين حق، بما ثبت من السنة الصحيحة عن تأثير العين وهي كما يلي:

1- ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنْه– عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم– قال: « الْعَيْنُ حَقٌّ » [2]. بل ثبت عنه –عليه الصلاة والسلام– أنه أمر بالرقية من العين فيما روته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنْها– حيث قالت: « أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم–، أَوْ أَمَرَ أَنْ يُسْتَرْقَى منَ الْعَيْنِ» [3].

2- ما ثبت من فعله –عليه الصلاة والسلام– أنه كان يعوذ الحسن والحسن –رضي الله عنهما– وذلك فيما رواه ابن عباس –رضي الله عنْهما– حيث قال: كان النبي–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم– يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ

(1) تفسير القرآن العظيم : (4/ 522).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الطب، باب العين حق .حديث رقم (5740)، ومسلم في صحيحة في كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي حديث رقم (2187).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الطب، باب رقية العين حديث رقم (5738).

يُعَوِّذُ بِهما إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّات مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» [1].

3- ما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس –رضي الله عنْهما–، عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم–قال: « الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا » [2].

4- ما رواه ابن ماجة وغيره عن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف –رضي الله عنْه– أنه مرَّ عامرُ بنُ ربيعةَ بسَهلِ بنِ حنيفٍ وَهوَ يغتسلُ فقالَ:" لم أرَ كاليومِ ولا جِلدَ مُخبَّأةٍ فما لبثَ أن لُبِطَ بِهِ فأتيَ بِهِ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فقيلَ لَهُ: أدرِك سَهلًا صريعًا قالَ: «من تتَّهمونَ بِهِ» قالوا عامرَ بنَ ربيعةَ قالَ: «علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ إذا رأى أحدُكم من أخيهِ ما يعجبُهُ فليدعُ لَهُ بالبرَكةِ ثمَّ دعا بماءٍ فأمرَ عامرًا أن يتوضَّأَ فيغسلَ وجْهَهُ ويديْهِ إلى المرفقينِ وركْبتيْهِ وداخلةَ إزارِهِ وأمرَهُ أن يصبَّ عليْهِ» [3].

5- ما رواه أهل التفسير في تفسيرهم [4].لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم:51]. بأن معنى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾: لينفذونك بأبصارهم أي: ليَعينُونك بأبصارهم، ويحسدونك؛

(1) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب أحاديث الأنبياء حديث رقم :(3371) .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي حديث رقم (2188).

(3) رواه النسائي في السنن الكبرى (101/7) في باب وضوء العائن برقم (7571)،وابن ماجه في كتاب الطب ،باب العين حديث رقم (3509)، واللفظ له، واحمد في مسند سهل بن حنيف برقم (16076) وصححه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني كذلك في مشكاة المصابيح برقم (4562) . وفي الجامع الصحيح وزياداته برقم (4020).

(4) ينظر: جامع البيان (202/23)، والمحرر الوجيز (354/5-355)،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (184/21-185)،وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (102/14).

لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم.

قال القرطبي:" ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ أَيْ يَعْتَانُونَكَ. ﴿ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ أَخْبَرَ بِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَرَادُوا أَنْ يُصِيبُوهُ بِالْعَيْنِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ وَلَا مِثْلَ حُجَجِهِ. وَقِيلَ: كَانَتِ الْعَيْنُ فِي بَنِي أَسَدٍ، حَتَّى إِنَّ الْبَقَرَةَ السَّمِينَةَ أَوِ النَّاقَةَ السَّمِينَةَ تَمُرُّ بِأَحَدِهِمْ فَيُعَايِنُهَا ثُمَّ يَقُولُ: يَا جَارِيَةُ، خُذِي الْمِكْتَلَ وَالدِّرْهَمَ فَأْتِينَا بِلَحْمِ هَذِهِ الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فَتُنْحَرَ. .....فَعَصَمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَنَزَلَتْ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم:51]." [1].

وأما قول المعتزلة الذي ذكره الزمخشري فمردود عليهم ولا وجه له للقبول لمخالفته للنصوص الثابتة الصحيحة واجماع علماء الأمة من أهل السنة، والواقع يدحره ومما تقرر عند علماء الأمة أن القول الذي يخالف القرآن أو السنة أو اجماع الأمة فهو مردود [2].

قال الإمام ابن عبد البر: "كل قول تعارضه السنة أو تدفعه، ولا دليل عليه من مثلها، لا وجه له" [3].

قال أبو العباس القرطبي في كتابه المفهم "والعين حقٌّ ثابت موجود، لا شكَّ فيه. وهذا قول علماء الأمَّة، ومذهب أهل السُّنَّة. وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوبون بالأحاديث النُّصوص الصَّريحة، الكثيرة الصحيحة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود. فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أحلَّتْهُ القِدْر،

(1) الجامع لأحكام القرآن (184/21-185).

(2) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (214/1-215).

(3) التمهيد (144/4).

لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولا يلتفت إلى مُغْرِضٍ عن الشرع والعقل، يتمسك في إنكار ذلك؛ باستبعاد ليس له أصل، فإنا نشاهد من خواصِّ الأحجار، وتأثير السِّحر، وسموم الحيوانات ما يُقْضَى منها العجب، ويُتحقَّق أنَّ كل ذلك فعل مسبِّب كلَّ سبب" [(1)].

الخاتمة: نتائج البحث وتوصياته

الحمد لله أولا وآخر وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد

فقد تعرض البحث لجمع ما استدركه الإمام الشوكاني في تفسيره على الزمخشري، وقد أقتصر على أهم المسائل التي خالف فيها أئمة التفسير من أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد؛ لأهميتها ولأنها أساس الاختلاف العلمي والمنهجي مع الزمخشري، وهذه المسائل هي حكم مرتكب الكبيرة، والمفاضلة بين الأنبياء والملائكة والبشر، ودخول الجنة بالعمل أم بالفضل، والموقف من الصحابة –رضوان الله عليهم– وتأثير العين، وقد قام البحث بذكر كلام الزمخشري في كل مسألة، ثم رد الشوكاني عليه، ثم مناقشة المسألة المعروضة لبيان القول الراجح، والاستدلال عليه بنصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء. وخلص البحث إلى النتائج التالية:

1- أن مرتكب لكبيرة ليس كافر كما زعمت المعتزلة وتبنى ذلك الزمخشري، وإنما هو تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه بقدر ذنبه وإن شاء عفا عنه، وأن من دخل النار بذنب من الموحدين فإنه لا يخلد فيها ومآله إلى الجنة.

2- أن المفاضلة بين الملائكة البشر من فضول الكلام التي لم يتطرق إليها صدر الأمة لا حظ لليقين فيها وأن القول بالتوقف والسكوت فيها هو الأولى.

3- أن دخول الجنة بالفضل لا بالعمل كما ثبت عن المعصوم – صلى الله عليه

(1) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (565/5).

وسلم – وإن كان العمل سبب لدخول الجنة وتفاوت الدرجات إلا أنه لا يمكن أن يكون معاوضة.

4- أنه لا يجوز الطعن في صحابة النبي –صلى الله عليه وسلم– فهم خير البشر بعد الأنبياء وحملة الدين وناصره ولهم من السوابق والفضائل ما شهد به الكتاب والسنة،

5- أن العين حق كما ثبتت بذلك النصوص رغم أنف المعتزلة منكري ذلك.

6- أهمية تتبع استدراكات علماء أهل السنة على المخالفين ممن انتسب إلى الفرق المنحرفة وتبنى مذهبها في تأويل آيات الكتاب الحكيم، أو رد السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وذلك لبيان الحق ونصرة للدين ولئلا يغتر بكلامهم بعض طلبة العلم ممن قد لا ينتبه لمقصدهم وضعف مسلكهم.

7- تبنى الإمام الشوكاني مذهب أهل السنة والجماعة في رده على الزمخشري بالدرجة نفسها التي تبنى بها الزمخشري مذهبه الاعتزالي في عرضه للقضايا موضوع البحث، ولم يقف البحث على مسألة واحدة خالف فيها الشوكاني مذهب أهل السنة والجماعة، بل كان معظما لنصوص الشريعة قائلا بها منافحا عنها.

8- خطورة اتباع الهوى والمذاهب المنحرفة التي تعمي صاحبها عن اتباع الحق، وتدفعه إلى تحريف معاني الآيات ورد السنة الصحيحة الثابتة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– والطعن في الصحابة الكرم الذين شهد الله ورسوله بتزكيتهم وتعديلهم، وتواترت النصوص في الثناء عليهم.

توصيات البحث:

يوصي الباحث بالاهتمام بتتبع استدراكات علماء أهل السنة على المخالفين ممن انتسب إلى الفرق المنحرفة وتبنى مذهبها في تأويل آيات الكتاب الحكيم.